

## "وتعظم في عين الصغير صغارها"

### "وتصغر في عين العظيم العظائم"

- المتنبي -

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكندي. سيد شعراء القرن الرابع الهجري ويعدّه البعض أكبر شعراء العربية، ومن أبرز شعراء العالم. ينتهي نسبه إلى كهلان من اليمن، وهي قبيلة عربية ذات فصاحة ولسن.

### أسرته:

ولد المتنبي سنة ٣٠٣هـ في حي كندة بالكوفة، وأرضعته امرأة علوية، وكانت أسرته رقيقة الحال، ولعلّ رقة حال أسرته كانت دافعاً قوياً إلى تكسبه بالمدح وإثبات ذاته المتفوقة.

أما سبب تسميته بالمتنبي فقد قيل فيه أمور كثيرة، أصحها أنه ادعى النبوة في بداية حياته إلى أن سجن واستتيب.

## نشأته:

نشأ بالكوفة، وكان يختلف أول أمره في التعليم إلى كُتّاب فيه أولاد الأشراف من العلويين. وبدأ بتعلم العربية لغة وإعراباً وشعراً. وارتحل إلى البادية طلباً لفصاحة القبائل العربية. فاكسب من مجالسها شيئاً من الفصاحة والبلاغة حين جالس الأعراب وشافهم. ولكن لم يطل به ذلك المقام فعزم سنة ٣٢٠هـ على الرحيل إلى بغداد. وواصل مسار رحلته مصعداً من بغداد إلى ديار ربيعة بين النهرين، ثم إلى الموصل ونصيبين ورأس عين. وانحدر بعد ذلك إلى بادية الشام، فقيل: ادعى النبوة وتبعه خلق كثير من البدو، فخرج إليه لولو أمير حمص فقبض عليه وسجنه، وتضاربت حول ذلك الروايات، ولكن الثابت أنه أودع السجن في سنة ٣٢١هـ. وكان مستخفاً بالسجن أول أمره، ولكن لما طال مقامه ولم يُطلق سراحه أرسل قصيدة يستعطف فيها الأمير الذي أودعه السجن. فخرج من السجن وقد لصق به لقب المتنبي.

وُصف المتنبي بأنه كان رجلاً ملء العين، تام الخلقة، لا يخلو من جفاء وخشونة. وعرف بالجرأة والإقدام والبعد عن ضعف النفس وخورها. ولعلّ حياته الأولى في البادية كان لها أثر في صفاته وأخلاقه. ومن مشهور قوله خطابه لنفسه -حاضاً إياها على الجرأة والمخاطرة-:

**ردي حياض الردى يا نفس واتركي**

**حياض خوف الردى للشاء والنعم**

أما بيته:

**الخيل والليل والبيداء تعرفني**

**والسيف والرمح والقرطاس والقلم**

فكان ولا يزال من الأبيات السيّارة، وهو أشهر أبيات المتنبى، بل أشهر بيت في الشعر العربي على الإطلاق.

أدت حياة الفقر التي نشأ المتنبى عليها إلى اتخاذه الشعر حرفة يأكل بها الخبز. ويكشف شعره أبداً إصراره في طلب الرزق:

### ضاق صدري وطال في طلب الرز

#### ق قيامي وقل عنه قعودي

ومن أجل هذا الرزق، كانت صفاته وأخلاقه تتشكل في اتصاله بممدوحيه. فلم يكن شاعراً يمدح فحسب وهو في بلاط سيف الدولة، بل كان فارساً يخوض غمار الحروب، ويصفها أجمل وصف.

إن من أبرز صفات المتنبى - التي انعكس أثرها على أخلاقه - طموحه؛ طموح لا تحده حدود، طموح جعله لا يدري ما يريد من الأيام: تارة يطمح في ولاية يدير أمرها فيكون له عزٌّ وجاه وسلطان، وأخرى يطمح في مجهول لا يستطيع له تحديداً. لذلك شقى المتنبى بطموحه كثيراً.

وكان في أخلاق المتنبى ترفع عن حياة أهل عصره، وما تمور به من تهافت على اللذات والشهوات. فأخلاقه محمودة وسيرته خالية من الموبقات.

ولعل الإحساس بالعظمة الذي جعل ذاته المتفوقة تبلغ حدّاً مرضياً - كان من صفات المتنبى التي خاض فيها الباحثون كثيراً. رأى بعضهم أنه يعاني من جنون العظمة، أو من عقدة نرجسية. ورأى آخرون أن هذا الإحساس بالعظمة استجابة طبيعية لذكائه وتفوقه. وزاد من إحساس المتنبى بذاته المتفوقة أن حساده كانوا له بالمرصاد، فربط مدحه بهجائهم:



## غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ

إن حاربوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

اتهم المتبني بالبخل، إلا أنه لم يكن بخيلاً، ولكنه صاحب فلسفة تتبع من معاناة حقيقية، أدرك خلالها قيمة المال وأثره البالغ في الحياة. ليس المال لديه مطلباً لذاته، ولكنه عون لدفع عاديات الحياة:

وما رغبتني في عسجد أستفيده

ولكنها في مفخر استجده

## أثر علمه وثقافته على شعره:

يُظهر ديوان المتبني فيضاً من المعارف المتنوعة المشارب. فشعره يبين عن شاعر عالم ومتقف، ولكنه لم يكن ممن يتعمدون إثقال الشعر بهذه المعارف، التي تُخرج الشعر عن عفو الخاطر، ولمحات الإحساس. فالمتبني كان كثير الدرس والاطلاع، شهر بارتياحه دكاكين الوراقين وملازمته لها. كما لازم أشهر علماء عصره من اللغويين والأدباء كالزجاج، وابن السراج، والأخفش الأصغر، وابن دُرَيْد، وأبي علي الفارسي، وجلس إلى نبطويه، وابن درستويه. وأخذ عنهم جميعاً. وكان -بجانب حفظه القرآن الكريم- قد أفاد فصاحة ولسناً حين شافه الأعراب وجالسهم في البادية.

فمن الناحية ثقافته التاريخية، نجد أن ديوان المتبني يعكس صورة للأوضاع التاريخية والصراعات السياسية التي كانت دائرة في عصره. كما أن لثقافته الدينية والفلسفية أثر واضح في شعره، وكان ذلك من مخرجات عصره الذي كان

ثرياً بالمذاهب الدينية والفكرية الفلسفية. كما تأثر المتنبي بالقرآن الكريم وألفاظه العظيمة، وبدا ذلك جلياً في كثير من أبياته.

### رحلاته:

خرج المتنبي من السجن في حمص بعد أن عرف جور الزمان وكيد الأعداء. فلحق بالتوحيين في اللاذقية وأقام عندهم حيناً من الزمان. وتوثقت صلته بأبناء إسحاق التوحي محمد والحسين ونظم فيهما قصائد من أجمل شعره.

ارتحل بعد ذلك إلى الكوفة وأمضى زمناً يشتغل بالعلم، راغباً عن مدح الناس أو التعرض بشعره لأحداث تلك الفترة. ثم خرج في ٣٢٦هـ من الكوفة. متوجهاً إلى الشام للمرة الثانية، ثم إلى عدة مدن في الشام حتى استقر في عام ٣٢٨هـ في رحاب بدر بن عمار. وكان بدر عربياً حلو الشمائل، فوجد المتنبي في بلاطه شيئاً من الاستقرار، فابتهجت نفسه وتجدد أمله. يقول:

أحلم أنرى أم زماناً جديداً

أم الخلق في شخص حي أعيدا

تجلى لنا فأضأنا به

كأنا نجوم لقين سمودا

ولكن المقام لم يطب له كل المطاب؛ فأعداؤه وحساده سعوا لإفساد ما بينه وبين أميره، وأغروا به الشعراء ليكيدوه بألسنتهم، وبدأ الأمير ينصرف شيئاً فشيئاً عنه، بعد أن كان المقدم لديه. ولعل اعتداد المتنبي بذاته، وعدم تمرسه بحياة القصور ودسائسها، كان مما وسع الشقة بينه وبين أميره. فخرج من بلاط

بدر قاصداً دمشق، ونزل بجبل جرش عند أبي الحسن علي بن أحمد  
الخراساني، وكانت بينهما مودة واستظل بحماه، ومدحه بقصيدة قال فيها:

لا افتخار إلا لمن لا يضامُ

مدرك أو محارب لا ينامُ

وخرج قاصداً أنطاكية عام ٣٣٤هـ، وبها أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن  
محمد الخصيبي. ووصله في هذه الفترة كتاب من جدته تسأله السير إليها وتبته  
شوقها، فقصد الكوفة، ولكن حيل بينه وبين دخولها. وتوفيت جدته فرثاها  
بقصيدته المشهورة:

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذمًا

فما بطشها جهلاً ولا كفها حلمًا

انحدر المتنبى إلى دمشق، وكان سيف الدولة قد صد الروم واستولى على  
أكثر الشام. وصار ملء السمع والبصر، وكان أبو العشائر والي سيف الدولة على  
أنطاكية قد مهد للمتنبى الانتقال إلى بلاط سيف الدولة بحلب. وكان سيف  
الدولة يحتاج شاعراً مثل المتنبى على كثرة شعراء بلاطه؛ شاعراً يصور تلك  
المرحلة من البطولات التي كانت تعيشها الأمة العربية. فوجد كلُّ منهما بغيته في  
صاحبه، فكتب المتنبى أجمل شعره - الذي يمثل ديواناً خاصاً هو سيفيات المتنبى -  
كله أو جله خلال إقامته بالشام. لم يمدح أحداً غيره خلال هذه الفترة، ولم يخجل  
الأمير على شاعره، ولكن ذات الشاعر القلقة وطموحه الذي لا يُحدُّ، فضلاً عن

أسباب أخرى أسهب الرواة في ذكرها، جعلت المتنبى يشد الرحال من حلب قاصداً دمشق سنة ٣٤٦هـ. واتجه إلى الرملة في فلسطين ومدح الأمير ابن طنج عامل كافور، الذي زين له الرحلة إلى كافور.

قصد المتنبى مصر مؤملاً أن يجد في حضرة كافور ما لم يجده لدى سيف الدولة. ولكن كافوراً كان سياسياً داهية وأديباً بارعاً، فأدرك مقاصد المتنبى وجعله يتأرجح بين اليأس والأمل. وتمثل هذه المرحلة ديواناً شعرياً عُرف بالكافوريات، من أشهره قصيدته التي مطلعها:

### عيد بأية حال عدت يا عيد؟

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

وهي آخر قصائده بعد أن يئس مما كان يأمله من كافور. ففر من مصر بعد أن كتب قصيدة الهجاء الخالدة في كافور.

## • الديوان وأغراضه الشعرية •

### الديوان:

يحتوي ديوان المتنبى خمسة آلاف وأربعمئة وتسعين بيتاً في إحصاء الواحد. وقد رتب المتنبى ديوانه بنفسه، وقرأه تلاميذه عليه وتدارسوه معه. وما ظفر ديوان شاعر في القديم والحديث بما ظفر به ديوانه من العناية والشرح؛ فقد ذكر له صاحب كشف الظنون نيفاً وأربعين شرحاً.

وقد عكف على ديوانه كثير من الأدباء والنقاد منذ حياته إلى يومنا هذا، ولذلك قال ابن رشيقي في حقه: إنه مالى الدنيا وشاغل الناس. كما رزق شعر أبي الطيب قبولاً ما حظي به شعر شاعر سواه؛ ففضلاً عن الجدل الذي أثاره ويشير في مختلف المجالس الأدبية بالأصقاع كافة بين الأدباء والنقاد، قد نجد لشعره ذيوماً حتى بين العوام. والقصة التالية تدل على هذا الذيوغ: قال أحد أصحاب ابن العميد: دخلت عليه يوماً قبل أن يتصل به المتبى، فوجدته واجماً - وكانت قد ماتت أخته من قريب- فظننته واجداً لأجلها، فقلت له: لا يحزن الله الوزير ما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني هذا المتبى واجتهادي في أن أخمل ذكره. وقد ورد عليّ نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا مصدرٌ بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر

فزعت فيه بأمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً

شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

## • الأغراض •

### المدح؛

اشتهر بالمدح، وله ١١٢ قصيدة في هذا الغرض، وأشهر من مدحهم سيف الدولة الحمداني وكافور الإخشيدى، ومدائحه في سيف الدولة وفي حلب تبلغ ثلث شعره أو أكثر، وقد استكبر عن مدح كثير من الولاة والقواد حتى في حدائته. ومن قصائده في مدح سيف الدولة:

وقضت وما في الموت شك لواقف

كأنك في جفن الردى وهونائم

تمربك الأبطال كَلَمَى هزيمة

ووجهك وضاحٌ، وثغرُك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

### الثناء:

للشاعر رثاء غلب فيه على عاطفته، وانبعثت بعض النظرات الفلسفية فيها.

وقال يرثى جدته:

أحن إلى الكأس التي شربت بها

وأهوى لثواها التراب وما ضمًا

بكيّت عليها خيفة في حياتها

وذاق كلانا ثكل صاحبهِ قدما

أتاها كتابي بعد يأس وترحة

فماتت سروراً بي، وميت بها غمًا

حرام على قلبي السرور، فإنني

أعد الذي ماتت به بعدها سُمًا

### الهجاء:

هجاء المتبني قليل لا يتعدى مثني بيت. ونفسه الشعري قصير فيه، وأغلبه

مقطوعات. وأطول هجاء له قصيدة في كافور، وأخرى في إسحاق بن كروس.  
وأشهر أهاجيه في كافور:

عيد بأية حال عدت يا عيد؟

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

وفيها:

من علم الأسود المخصي مكرمة؟

أقومه البيض أم أبأؤه الصييد؟!

أم أذنه في يد النحاس دامية؟!

أم قدره وهو بالفلسين مردود؟!

الوصف:

أجاد المتبني وصف المعارك والحروب البارزة التي دارت في عصره، وخاصة في حضرة سيف الدولة وبلاطه، فكان شعره يُعدُّ سجلاً تاريخياً. كما أنه وصف الطبيعة، وأخلاق الناس، ونوازعهم النفسية، كما صور نفسه وطموحه. وقد قال يصف شعب بوان، وهو منتزه بالقرب من شيراز:

لها ثمرتش يرثيك منه

بأشربةٍ وقطن بلا أوان

وأمواه يُصلُّ بها حصاها

صليل الحلى في أيدي الغواني

إذا غنى الحمام الورقُ فيها

أجابته أغانيُ القيان

**الغزل:**

لم يخص المتنبي هذا الفن بقصيد وإنما كان يأتي في مطالع قصائده مما دفع بعض النقاد إلى القول إنه غليظ القلب لا يحب، وليس كذلك. ولعل طغيان النظرة التي حاول أن يشيعها في شعره من عنف في الرجولة، وانشغال بمعالى الأمور، والأحداث الجسام التي مرت به، هي التي أخفت بريق الغزل في شعره فبدا باهتاً متكلفاً:

وكان أطيّب من سيّفي معانقة

أشباه رونقه الغيد الأماليد

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئاً تيمه غيد ولا جيد

ولكن هذا العنف يخفي وراءه نفساً رقيقة تحس الجمال وتتفعل به، يقول:

أصخرة أنا؟ مالي لا تحركني

هذي المدام ولاهذي الأغاريد؟!

**الفخر:**

لم ينس المتنبي نفسه حين يمدح أو يهجو أو يرثي، ولهذا نرى روح الفخر شائعة في شعره.

واني لمن قوم كأن نضوسهم

بها أنفاً أن تسكن اللحم والعظما

وكثيراً ما كان يفخر بشخصه معلماً شأن ذاته المتفوقة:

أعط عنك تشبيهي بما وكأنه

فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

### الحكمة:

اشتهر المتنبى بالحكمة وذهب كثير من أقواله مجرى الأمثال، لأنه يتصل بالنفس الإنسانية، ويردد نوازعها وآلامها. ومن حكمه ونظراته في الحياة: والتي تدل على الاطلاع والثقافة. ومن أمثلتها ما وافق به أرسطو، إذ قال الأخير: "إذا كانت الشهوة فوق القوة كان هلاك الجسم دون بلوغها".

وقال المتنبى:

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها الأجسام

وقال أرسطو: "علل الأفهام أشد من علل الأجسام" وقال المتنبى:

يهون علينا أن تُصاب جسمونا

وتسلم أعراض لنا وعقول

وحكمة المتبى مبثوثة فى ثنايا قصائده؛ قد تأتي فى بيت أو فى نصف بيت  
ومن أمثلة ذلك:

ومن نكد الدنيا على الجرأن يرى

عدوآله ما من صداقته بدُّ

وفى نصف بيت:

"أنا الغريق فما خوفى من البلبل"

"مصائب قوم عند قوم فوائد"

"وخير جليس فى الزمان كتاب"

**مقتله:**

كان المتبى قد هجا ضبة بن يزيد الأسدى العىنى بقصيدة شديدة، أفحش  
فىها القول وأقذع، إذ قال المتبى:

ما أنصف القوم ضبّه

وأمنه الطرطربّه

فلا بمن مات فخر

ولا بمن عاش رغبّه

فلما كان المتبى عائدًا يريد الكوفة، وكان فى جماعة منهم ابنه محسّد  
وغلامه مفلح، فلقيه فاتك بن أبى جهل الأسدى، وهو خال ضبة، وكان فى  
جماعة أيضاً، فأراد المتبى أن يهرب فقال له ابنه وقيل غلامه: يا أبه! وأىن  
قولك:

## الخييل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم!؟

فقال له: قتلتي يا ابن اللخناء!

ثم قاتل حتى قتل هو وابنه محسّد وغلّامه مفلح، وكان ذلك في السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٥٤هـ، بالنعمانية بالقرب من دير العاقول غربيّ بغداد.

وفي القصيدة التي كانت سبب هلاكه، يقول ابن العديم: "ما للممتبي شعر أسخف من هذا الشعر، ولا أوهى كلاماً، فكان على سخافته وركاكته سبب قتله وقتل ابنه، وذهاب ماله".

